

أول الكلمة وآخرها

كلما نطقْتُ الكلمة

وقعت أنفاسي على الأرض .

كلما نزعْتُ الكلمة من القاموس

ورميتها خارج اللغة ، تعود إلى مكانها

بعدما يضحك في مفاصلها المعنى.

كلما وقف البحر على قدميه ، وانتصب أمامي

أرى الكلمة تجف وتتبیس .

أرى ليلاً يتكسر على حافة لساني ، وأولادها ينامون عراة تحت ظلال ذاكرتي .

لكنها تعود كما كانت ؛ لأن البحر نفسه سرعان ما يلتفت إلى الوراء ويقرر المشي.

كلما أحدثتُ ثقباً برأس الكلمة ؛ كي أدع ماضيها ينزف على يدي ، يضع ملاك يده على الثقب ، ويقول :
الدم ذخيرتك لا تدعه يلامس الهواء .

كلما أعارني قريب من العائلة كلمته ، وأرفقها بورقة مكتوب عليها تعليمات الاستعمال ، وتعليمات
الحفاظ عليها سليمة حتى وقت إعادتها له . أفاجأ أنها تذهب مباشرة إلى الثلاجة وتغلق على نفسها
الباب ، وحين أحاول فتحه ، يلذعني ماس كهربائي ، فأمتنع.

كلما لمست جداراً في طريقي إلى بيتك

يتحول إلى كلمة ،

وكلما لمست با با أيضا تختفي الكلمة

لا أسأل لماذا ؟

ولا أريد .

لكنني تعلمت لاحقا أن أضع قفازات على يدي

تجعل الجدار لا يتحول ، والباب يختفي .

كلما نظرتُ الكلمة إلى ساعتها ، ثم حدثت في عينيّ

أدركتُ الحقيقة ، الخروج الآمن من حريق اللغة ، لا يتحقق إلا برجال إطفاء أكفاء ومسعفين محترفين .

كلما كانت الكلمة تنزل عن طلالها كنت أسرقها رغبة لإهدائها إلى طلي حتى لا يهرب.

كلما تصعد الكلمة إلى السماء تأخذ معها شيئين لا ينفكان يذكراني بها دائما : حالات الصرع وحالات الصراخ .

وحين تعود بعد غياب طويل ، أرى في يديها كتابين تهديهما لي : كتاب الصرع وكتاب الصراخ .

كلما رنّ جرس المنزل

وقالت الكلمة : أنا

أسرعت ووضعت غبار لمساتي

في المدخل المفضي إلى الصالة حيث أجلس

لأن الكلمة صديقتي لا تبصر

ولأن اللمسة هي دليلها الأقوى .

تعود أن يضع سريره قرب سرير الكلمة ، ويناام

تعودت الكلمة أن تتسلل إلى أحلامه ، وتنام في إحدى مجازاته .

ذهب النوم وجاء آخر ، اختفت الأحلام وجاءت أخرى ، غير مكان سريره ، وخيّر الشراشف والوسائد بين أن تظل أو تغادر ، فتح نافذة غرفته للريح ، لم يبق نقش على السرير ، أو رسم للكلمات على الجدار ، أو صورة معلقة لعائلة الكلمة إلا وحملتَها .

رغم كل ذلك طلت الكلمة نائمة في المجاز ذاته ولم تستيقظ أبدًا .

في أشدّ مواقفه ضعفاً ، يبتزه الخوف بعد هروبه من الجسد : إمّا تجلب لي الكلمة حالا ، وإمّا أنشر صورتك الحميمة على مرأى العالم.

يبحث عنها في الأسواق ، في المحلات التجارية ، بين الأصدقاء . في تاريخ اللغات المنسية ، ينشر خبرا في تويتر عن ضياعها .

لكن دون جدوى .

عليه الآن ، أن يرمي عظمة الانتظار على كلب (الخوف) حتى لا ينبج كثيرا ،

عليه أن ينتظر الانتظار ؛ لأن فيه خلاصه .

فالخوف يخاف أن يعود إلى جسده مرة أخرى ، والكلمة بدورها تخشى العودة إلى الخوف ، وهو ما بينهما رسالة عسكرية لا زالت مشفرة منذ الحرب العالمية الثانية.

حين نزلت الكلمة على رؤوسهم طنوا أنها قذيفة ، وقد مزقت أجسادهم وجعلتها شظايا : الأقدام تطايرت

حتى وصلت أطلال قصيدة أمرؤ القيس وأخفت آثاره ، الأيدي المبتورة وقعت بشدة على كلمة (تعرفني) في بيت المتنبي : الخيل والليل والبيداء .. ألخ وكسرت وزنه ، ولم تعد تعرفه .

عظام الرأس العارية عن لحمها فاجأت الجميع ووقعت نقطة في آخر سطر من ملحمة جلجامش .

لكن أعينهم لم تبح مكانها ولم ينطفئ نورها ، ودماءهم احتمت خلف دروع حديدية مصنوعة من البلاغة القديمة .

حينها علموا أنهم أحياء ، وأن الذي نزل لم يكن سوى حرف الميم فقط من كلمة المخيلة المعلقة فوق رؤوسهم مثل مروحة .

أفتُ مدعورا على أنين الكلمة بجانبني ، والناس يتزاحمون في اختلاس النظر لكلينا

قلت : ما الأمر ؟!

أشار أحدهم إلى سيارتي (البيك أب) المنقلبة وسط الطريق . ألفت يمنة ويسرة ، أجلت النظر . لم أر سيارة أخرى ولا ضحية مصابة .

وقعت في حيرة من أمري . وحين حدثت في الكلمة باستغراب ، رفعت رأسها وقالت بصوت خافت :

ألم نعقد اتفاقا قبل يومين ، أنت تعبر بي خارج الحدود وأنا أمنحك جميع قصائدي في الرثاء ، ممهورة باسمك ؟!

وكأني شخص فقد ذاكرته ، بفعل الحادث ، مضيت

وخلفي يتبعني هذا الأنين. سنوات مرت ولا زال يتبعني ،

يتحين الفرصة تلو الأخرى ؛ كي يقترب ، ويقول :

أرجوك أرجعني إلى قصيدة الرثاء التي سقطت منها .

بعد حياة حافلة بالحب والصداقة بينهما ، أخذ قراره أن يهجر الكلمة إلى الأبد ، ملّ من تدخلاتها بينه وبين أشياءه الخاصة : الحب يريد أن يلمسه لا أن يقوله ، حجر الرغبة يريد أن يلامس جسده العاري ، لا أن تكون الاستعارة حازما بينهما ، لا يريد أن يقول هذه زهرة ثم يلمسها ، بل يريد من الاسم أن يدفن نفسه ولا يخرج ، يريد أن ينتعل النهر ويحضر الشجرة ويحرق في عتمة الليل ويسمع شدة العصافير ، ثم بعد ذلك لتذهب الكلمة إلى عائلتها في بئر القواميس ، وترمي نفسها هناك .

محمد الحرز

□ - مستوحى من عنوان للشاعر سركون بولص " عظمة أخرى لكلب القبيلة "